الدرس (09): ترجمة مصطلحات المنهج الأسطوري

تمهيد:

يعنى المنهج الأسطوري بمقاربة النصوص الأدبية من مدخل استحضارها لمختلف النماذج الأسطورية في التراث الإنساني؛ حيث يقوم بالكشف عنها وتحليلها، وبيان أثرها الإيديولوجي والجمالي في الممارسة الأدبية، أما عن المصطلح النقدي المعتمد في هذا المنهج فقد تم نقله عن النقد الأسطوري الغربي بواسطة الترجمة؛ مع التركيز على المصطلحات الدالة على الفعل والممارسة أكثر من غيرها.

مصطلح الأسطورة (mythe):

جاء في المعجم الفلسفي لجميل صليبا أن الأسطورة مصطلح عربي يقابله في اللغة الفرنسية مصطلح (mythe)، وفي اللغة الإنجليزية مصطلح (mythe)، وفي الأصل اليوناني مصطلح (muthos)، والأسطورة في معناها اللغوي حديث لا أصل له، وهي قصة خيالية ذات أصول شعبية، ترمز شخصياتها إلى قوى الطبيعة، ومنها الأساطير اليونانية التي تفسر ظواهر الكون والطبيعة بقوة الآلهة وتأثيرها؛ وبذلك تكون الأسطورة حديثا خرافيا يفسر معطيات الواقع؛ مثل أسطورة العصر الذهبي، وأسطورة الجنة المفقودة؛ أما عن العلم الذي يهتم بدراسة الأسطورة؛ فهو علم الأساطير (mythologie)[1].

أما في معجم الكلمات المفاتيح لريموند وليمز فيأتي مصطلح الأسطورة في مقابل المصطلح الإنجليزي (myth)، الذي ينحدر من الأصل اللاتيني اليوناني (mythos)؛ بمعنى خرافة، وقصة أو حكاية، وتعد الأسطورة تعبيرا جوهريا عن خصائص معينة يحتفظ بها العقل البشري على مستوى النظام الذهني أو السيكولوجي الخاص به؛ حيث يرتبط هذا التعبير على الدوام بفترات أو ثقافات معينة؛ وقد اتصلت الوظيفة الأسطورية بالوظائف الإبداعية (creative) في الفن والأدب؛ من مدخل بعض المفاهيم الحديثة والمتشابكة في محاولة لتحليل الطبيعة البشرية؛ متمثلة في التخيل (imagination)، والخيال (fiction)[2].

[1]– ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج1، الشركة العالمية للكتاب طباعة ونشر وتوزيع، بيروت، لبنان، 1994، ص79.

[2]– ينظر: ريموند وليمز، الكلمات المفاتيح (معجم ثقافي ومجتمعي)، تر. نعيمان عثمان، المركز الثقافي العربي، الدر البيضاء، المغرب، ط1، 2007، ص212-213.

أفاد الأدب بل الإبداع الإنساني عموما من الرصيد الأسطوري في تقديم منجزاته؛ أما عن تفسير هذه الظاهرة؛ فيمكن القول أن الإنسان بطبعه ينجذب لماضيه ولما تختزنه الذاكرة الجماعية من خبرات وأحداث، وعودته للماضي تعزز لديه فكرة الوجود.

والأسطورة (myth) خرافة معروفة في التراث الإنساني؛ ترجع أحداثها إلى عصور قديمة، وتدور حول كائن خارق القدرات، ولهذا لا نجد لها تفسيرا طبيعيا أو منطقيا، وقد تحاول الأسطورة شرح ظاهرة غريبة دون الاحتكام للحقيقة العلمية؛ كما أن الأساطير تخاطب الانفعال وليس العقل، في وقت لم يكن فيه التفسير العقلي مطروحا كمطلب إنساني؛ وإذا كانت الأسطورة قصة خرافية فإنها أقل عناية بالتاريخ مقارنة بالخرافة (legend)، وأقل انشغالا بالنزعة التعليمية مقارنة بالخرافة الأخلاقية (fable)؛ ومع ذلك تشترك هذه الأشكال الثلاثة في الخيال فضلا عن كونها قد انتقلت بمرور الأجيال بواسطة المشافهة[1].

أما من حيث الأهداف والمقاصد المرجوة فـ «إن الأساطير تتضمن وصفا لأفعال الآلهة، أو للحوادث الخارقة، وهي تختلف باختلاف الأمم، فلكل أمة أساطيرها، ولكل شعب خرافاته الموضوعة للتعليم أو التسلية، وقد قيل: إن الأسطورة هي التعبير عن الحقيقة بلغة الرمز والمجاز»[2].

نفهم من ذلك أن الأسطورة إرث إنساني انتقل عبر الأجيال بالمشافهة، وهي تتميز بموضوعها الخارق للطبيعة، وشخصياتها العجيبة، بالإضافة إلى الدور الكبير الذي تلعبه الآلهة في توجيه أحداثها، كما أنها تخاطب العقول والعواطف في الآن ذاته، أما عن استحضارها في الفنون الحديثة فمن أجل تحقيق مقاصد تعليمية، فضلا عن الترفيه والتسلية، وكذلك نقد الواقع ومراجعته من وراء القناع الأسطوري.

النقد الأسطوري:

حققت الأساطير تراكما معتبرا عبر التاريخ الإنساني الطويل، حتى أرتقت إلى مستوى الظاهرة التي أثارت تفكير الباحثين؛ فما كان من جهودهم إلا أن تبلور علم خاص يعنى بدراسة المواد الأسطورية وتحليلها وإحصائها؛ عرف بعلم الأساطير.

[1]– ينظر: ابراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، 1986، ص27–28.

[2]– جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ص79.

أما عن المقاربة النقدية التي راحت تتعقب حضور الأساطير في النصوص الأدبية؛ فأخذت تسمية المنهج الأسطوري؛ وهو «منهج يدرس الأساطير والرموز الخيالية التي تكون بديلا وتعويضا لما هو واقعي ومادي، ويساعد المنهج الأسطوري في تحليل النصوص الأدبية أنثروبولوجيا واجتماعيا وإنسانيا، كما يساعد على تأويل الصور الفنية الشعرية، انطلاقا من ربط الماضي بالحاضر، ويتجاوز المنهج الدلالات القريبة، إلى تفكيك الظاهر وتجاوزه نحو الباطن، وذلك باستقراء اللاشعور الجمعي والعقل الباطن»[1].

وبالنظر إلى التراكم الأدبي المعتبر الذي يتخذ من الأساطير موضوعا له سردا وتمثيلا؛ «لا غرابة أن يتحول المنهج الأسطوري في عالم الأدب إلى معنى "الأسطرة"؛ أي خلق عالم أسطوري بوسائل أدبية، ويتحول الهدف من البحث عن نماذج أولية جاهزة إلى البحث عن أنظمة إبداعية كامنة في الظاهرة الأدبية التي تعد قديمة قدم الإنسان، وهكذا تبقى الوظيفة هي التي تمنح دورا جديدا للمنهج الأسطوري في عالم الأدب»[2].

ويعد النقد الأسطوري الأنسب لقراءة النصوص الأدبية وتأويلها؛ خاصة تلك التي تتخذ من الأساطير خلفية فكرية وجمالية لمناقشة الراهن وتعريته؛ ولولا هذا النوع من المقاربة النقدية لما استطعنا إثارة تساؤلات كثيرة حول صلة الأدب بالأساطير، ولا الكشف عن هذا الأثر في ظل سلطة النص الأدبي وتمنعه عن الفهم والتفسير.

مصطلحات النقد الأسطوري:

يملك النقد الأسطوري (Mythocritique) منظومة اصطلاحية خاصة به، تحيلنا إلى ثلاثة عناصر رئيسية؛ يمكن اعتبارها من المفاهيم الأساسية في تطبيقات الدراسة النقدية الأسطورية؛ متمثلة في التجلي، والمطاوعة، والإشعاع.

1. **التجلي** (émergence):

ويقصد به حضور العناصر الأسطورية في النص الأدبي خاصة تلك التي يشترك فيها مع النصوص الأدبية الأخرى، والسعي إلى الكشف عنها عبر مختلف التقنيات التعبيرية المعتمدة؛ متمثلة في العبارات الاستهلالية،

[1]– غيثاء قادرة، المنهج الأسطوري في قراءة الشعر الجاهلي، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة سمنان الإيرانية بالتعاون مع جامعة تشرين السورية، السنة 02، ع07، ديسمبر 2011، ص58.

[2]– عاشور بارودي، فعالية المنهج الأسطوري في دراسة الشعر الجاهلي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باتنة1، الجزائر، ع11، ديسمبر 2013، ص62.

والعناوين، واللوازم النصية المتكررة، والاقتباس والتضمين، والتناص، والصور البلاغية، والخلفيات الاسطورية، فضلا عن البناء الفني الذي يقترب أكثر من البناء الفني للأسطورة، وهذا التجلي يتخذ الحالات الآتية[1]:

– **التجلي الصريح أو التام:** ويظهر في العناوين أو اللوازم المتكررة، أو التضمين والاقتباس؛ أي أن الإشارة إلى الأثر الأسطوري تكون واضحة تسمية أو صفة.

– **التجلي الجزئي:** يكون بالإشارة إلى جزئية معينة أو صفة ما ذات صلة وثيقة بالأثر الأسطوري، وبذلك يكون هذا الجزء دالا على الكل؛ حيث يمكن استنتاجه من الصور البلاغية والرموز الأسطورية.

– **التجلي المبهم أو المضمر:** ويمكن أن نصفه بالضمني وهو الأكثر حضورا في النصوص الأدبية؛ نستشفه من الصور البلاغية؛ حيث يستتر الأثر الأسطوري خلف لغة الإيحاء، فيجتهد القارئ في كشفه.

2. **المطاوعة** (Flexibilité):

تصور ذهني يطلق على البعد الدلالي للعنصر الأسطوري بين الثابت والمتحول، ويتحدد انطلاقا من الكلمة ومدى مطاوعتها الدلالية والإشارية لهذا العنصر، وتظهر المطاوعة أكثر ما تظهر في النصوص الإبداعية عبر رمزية اللغة، متخذة ثلاثة أنواع؛ هي[2]:

– **التماثل والتشابه:**

والمقصود به أن هناك أوجه للتماثل والتشابه بين العنصرين الأدبي والأسطوري؛ وتظهر عبر الشخصيات أو المواقف، أو الأحداث، أو الأماكن وغيرها، حيث يكتسب العنصر الأدبي جمالية وإيديولوجية العنصر الأسطوري بواسطة الرمز والإيحاء، ويتم الكشف عن هذا الأثر بالمقارنة الأدبية.

– **التشوهات والتغيرات:**

والمقصود بها أن يتعمد الأديب إحداث اختلاف في العنصر الأدبي حتى يبتعد أكثر عن العنصر الأسطوري إما بالزيادة أو النقصان أو المفاضلة، أو التناقض خاصة في عرض الأحداث وتقديم الأدوار، وبذلك يكون قد تمكن من خلق مسافة دلالية بين العنصرين الأدبي والأسطوري بعد أن أخضع الأسطورة للمطاوعة الأدبية.

[1]– ينظر: عبد المجيد حنون، النقد الأسطوري والأدب العربي الحديث، مجلة اللغة العربية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ع14، 2005، ص 230- 232-233.

[2]– ينظر: نفسه، ص236-237-238.

– **الغموض وتعدد الرؤية:**

أن يظهر العنصر الأسطوري في النص الأدبي أكثر غموضا؛ بسبب الاختصار، أو التوسع أو التناقض، ويتعمد الأديب تقديمه تقديما غامضا ليشد انتباه القراء إليه، ويفتح باب التأويل أمامهم على الاحتمالات الدلالية المتعددة، بما يتوافق وأفق الانتظار لديهم.

3. **الإشعاع** (Irradiation):

يعد حضور العنصر الأسطوري في النص الأدبي علامة مميزة، وبنية أساسية في دراسته وتحليله؛ نظرا لأهمية الإشباع الدلالي الذي تضفيه الأسطورة على الأدب بواسطة الرموز والإيحاءات المتعددة، وتتكشف كفاءة الإشعاع النصي من التوظيف الإبداعي للأثر الأسطوري في الممارسة الأدبية؛ حيث تتوافق وأفق انتظار المتلقي، ويأتي هذا الإشعاع بوجهين؛ هما[1]:

– **الإشعاع الساطع**: وهو التصريح بحضور العنصر الأسطوري في النص الأدبي عبر الاستهلال الواضح، أو العنونة المباشرة، أو الأسماء، وغيرها بما يقطع الشك باليقين حول الصلة بين الأسطورة مصدر الإلهام، وأثرها في المدونة الأدبية.

– **الإشعاع الخافت أو الباهت**: وهو اكتفاء الأديب بالتلميح أو الإشارة إلى العنصر الأسطوري في النص الأدبي؛ كأن يشير إلى صفة أو وظيفة أو غير ذلك من العناصر المستوحاة من الخلفية الأسطورية، وقد يتعلق الأمر باحتمالات التقارب على مستوى البناء الفني بين النصين الأسطوري والأدبي.

مصطلح الانزياح:

إن استحضار الأسطورة في النص الأدبي لا يخرج عن كونه انزياحا عن النموذج الأسطوري الأصلي؛ ولهذا يمكن اعتبار المفاهيم الثلاثة السالفة الذكر (التجلي، والمطاوعة، والإشعاع) شكلا من أشكال الانزياح؛ إلا أن مصطلح الانزياح في النقد الأسطوري مختلف في ترجمته؛ وهذا أكده "حنا عبود" بالقول: «ثمة إثارة أخرى كنا نود أن نطرحها وهي مشكلة المصطلح النقدي، فحتى الآن لم نتفق على بديل كلمة (Dis placement) هل هي الانزياح كما نرى، أم الاستبدال كما يرى غيرنا أم التنحي والانحراف كما يرى بعضهم»[2].

[1]– ينظر: عبد المجيد حنون، النقد الأسطوري والأدب العربي الحديث، ص243–244.

[2]– حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري (دراسة)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 1999، ص136.

وبغض النظر عن كونه انزياحا أم استبدالا أم انحرافا أم تعديلا غرضه التنحي عن النموذج الأسطوري في كتابة النص الأدبي مع الحفاظ عليه في الآن ذاته؛ فإن «الانزياح مصطلح أوجده النقد الأسطوري؛ للدلالة على أن الأسطورة الأصلية تخضع لتعديل يجريه الشاعر أو الأديب حتى يلائم بينها وبين موقفه ونظرته، ولو كانت مجتمعات اليوم كمجتمعات الأمس البعيد لما كان ثمة حاجة إلى إجراء التعديل الذي يزيح الأسطورة عن أساسها وهيكلها الأولي»[1].

معنى ذلك أن الانزياح الذي يمارسه الأديب في تعامله مع المادة الأسطورية يستمد مشروعيته من طبيعة الموقف السردي في النص الأدبي، وكذلك خصوصية المتغيرات الاجتماعية، وبقدر ما يكون هذا الانزياح فنيا وجماليا بقدر ما يكون أكثر تقبلا لدى القارئ.

خلاصة:

نخلص إلى القول أن المصطلح النقدي في المقاربات المنهجية الأسطورية قد اتسم بالتعدد بالنظر إلى تعدد أشكال الممارسة الأدبية في اشتغالها الفني والجمالي على توظيف عنصر الأسطورة في بناء خطابها، إلا أن ترجمة المصطلح الأسطوري لم تشكل استثناءً حقيقيا بالنسبة لترجمة المصطلح النقدي عموما، خاصة ما ترتب عنها من إشكالات معرفية.

[1]– حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري (دراسة)، ص152.